

جَمَالِيَّةُ الْحَلْمِ فِي الشَّعْرِ الْجَزَائِرِيِّ الْحَدِيثِ

The aesthetic of the dream In modern Algerian poetry

أ. موسى كراد *

تاريخ الاستلام: 12 - 14 - 2019 تاريخ القبول: 15 - 10 - 2020

التعريف الرقمي للمقال: doi 10.33705/0114-023-004-019

ملخص: مع كل الإحباط واليأس والمعاناة التي مرّ بها المبدع الجزائري - كان ولا زال - يؤمن بالحلم كمبدأً وحقيقة وجودية وكخطوة أولى لتحقيق ما يصبو ويطمح إليه فمنه تنطلق شرارة الرغبة في المقاومة والاختلاف وتغيير واقع بات غير مقبول فحلم كل مبدع هو تحقق الجمال، وأنّ يعم الخير والسلام والعدل، فهو يبتّ أحلامه في مجمل نتاجه، حيث نلمح حالات الإشراف والتفاؤل والأمل لواقع مغطى بإشارات اليأس والحزن والانكسار.

تحاول هذه الورقة البحثية استجلاء تمظهرات جمالية الحلم في نماذج من الشعر الجزائري الحديث، حيث شكّل الحلم ظاهرة بارزة وسمت معظم قصائد الشعراء خاصة في فترة الثمانينات والتسعينات؛ أين خيم الألم والحزن والاغتراب في أجواء القصيدة الجزائرية الحديثة، ليحمل الشاعر الجزائري قلمه ليهدم كل ما يتعارض مع الحلم، وليبني صورة تليق بحلمه.

الكلمات المفتاحية: جمالية؛ الحلم؛ الشعر الجزائري الحديث.

* المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف، ميلّة الجزائر، البريد الإلكتروني:

Adab.kerrad@yahoo.com (المؤلف المرسل).

Abstract: This paper attempts to explore the aesthetic manifestations of the dream in the models of modern Algerian poetry, where the dream was a prominent phenomenon and characterized most poems of poets, especially in the eighties and nineties; where pain and sadness and alienation in the atmosphere of modern Algerian poem, to carry the Algerian poet pen to destroy everything that conflicts with Dream, and build a picture worthy of his dream.

keywords: aesthetic; dream; modern Algerian poetry;

مقدمة: حينما تتمرّد الذات، وتعلن حملة انقلابية شرعية ضد رقابة القوانين والقواعد المترتبة في واقع أثبت انهزاميته في إقناع ما تتوق النفس إليه، تصبح الكتابة نوعا من الخروج من شرنقة الاغتراب واليأس والقلق الموجود، راجية (الكتابة والقصيدة) الخلاص عن طريق الحلم، الذي يستحيل لأيادي الآخرين تلويثه أو قتل متعة التحرر فيه.

لقد كانت الظروف السلبية والمعاناة هي القاسم المشترك بين الشعراء الجزائريين في رصددهم لآثار الاغتراب على مشاعرهم حيث تقاسموا الإحساس بالغربة نتيجة الظروف القاهرة سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية، وقد لعبت هذه الأخيرة دورا كبيرا في تعميق ذلك الإحساس، خاصة لما يلاقيه الشعراء من حصار وقمع وعدم اهتمام، مما جعلهم غير قادرين على تفعيل دورهم الإبداعي في مجتمعاتهم، ويكون شعرهم شعر شكوى وأنين وحزن دائم، وتقل الإيجابية في شعرهم وتكون منحصرة في بعض التّفاؤل المرتبط بالمستقبل لا بالحاضر، وهو قاسم يدل من جهة على الانهزامية والسوداوية النّاطرة للراهن الواقعي الجزائري المانعة لظهور بصيص الأمل في ذلك الأوان، ومن جهة ثانية يحيلنا إلى طبيعة الوعي السائد الناتج عن أثر البيئة والمجتمع، والمرتبط باليأس والاغتراب والإحساس بالضّياع والعجز والخوف والحيرة والتشاؤم.. (مكسح، 2014-2015، ص 255) وغيرها من الأحوال السلبية الطاغية في الشعر الجزائري.

إنّ " الظروف الإيجابية ورغم قتلها تنحصر في حال الأمل والحلم والتّفاؤل الذي يشترك في إبرازه الشعراء الجزائريون بشكل نادر وهو مرتبط بما هوأت في المستقبل

وكانهم يؤمنون بعدم التغيير نحو الأفضل في الواقع الحاضر، لما يتسم به من سمات تجعلهم متشائمين على الدوام" (مكسح، ص 256)، لأن تطلع الشاعر نحو الأمل والتغيير الجميل ما يلبث أن يصيبه العطب والانكسار نتيجة الواقع المنهار، مما يجعله يحس بالتشاؤم والاعتراب وضياع قيمته وقدرته المنهكة أمام ضغط الرّاهن، يعيش عبد الله العشي هذا الواقع المأزوم فيقول:

كم تبقى من العمر؟

ها أنا أدنو من القبر

منكسرا، متعبا، مطفاً الحلم، مرتجفا

ذاهبا في نشيد الذّهاب (العشي، ص 30-31).

فها هو علي ملاحي يعبر عن عجزه فيقول:

كيف أحمل نبضي وأسكن هذا القدح

وأنا شاعر لم يجد وجهه في مسافات حلم الرّياح (ملاحي، 1986، ص 57).

حيث يبدي الشاعر ويصرح بعجزه في تحقيق طموحاتهم وأحلامهم (المبدعون) وعدم قدرتهم على تفعيل دورهم، عبر التّساؤل الذي يكشف حيرته.

جمالية تمظهرات الحلم في الشعر الجزائري الحديث: نماذج مختارة:

استعان الشاعر الجزائري المغترب بالحلم رغبة في قهر اغترابه، لاستحالة العيش في واقع يرفضه ويرفض أفكاره.

ربيعة جلطي عاشت ما عاشته الجزائر أيام الأزمة والعشرية السوداء، ترصد في هذه المقطوعة الشّعريّة لحظات الموت والخوف والاعتراب والألم، ثم انتفضت شادية يحدوها أمل وحلم الخروج من ذلك النّفق المظلم، وبعد أن منعت عصافيرها أن تغني خوفا من الموت والعقاب، راحت ترسل أعذب الألحان بأزهى الألوان تقول:

من عمق الشّتات ينسل خيط

يخفق سرب من العصافير الملونة

يشق الغراب... يبهز الحلم

سنخلق متسعا للغناء

أيتها العصفير الملونة.. يا قلبي

متسع للغناء

متسع للغناء (جلطي، 1991، ص 11):

فهي تتمسك بالأمل متفائلة بغد جميل، تغيب فيه المعاناة ويهلك فيه القمع، محولة
تطلعها من الحاضر نحو المستقبل، وهو ما يحيل إلى وضع نفسي-منهار، غير قادر على
استنبات الأمل في الراهن:

في الربيع القادم سأصير أجمل

ستأتي أمي تلفني بشعرها الأطول

تهدهد عيونها السود أطفالا

تلم الليل عني، وأنياب الكواسر (جلطي، 1996، ص 71).

من رحم الاغتراب والألم والقسوة تنبعث الحياة، ومن الشتات تبنى الأحلام المزخرفة
بألوان الطيف، ومن المواجه تعزف أعذب الألحان، يقول عبد الحليم مخالفة متحدّيا
الآلام:

إيه يا جزائر رغم آلام الجميع...

رغم النذالة والعمالة

رغم جرمهم الفضيع

والمطارد والصريع...

رغم العواصف والرياح

رغم السواد السائد رغم الجراح

رغم الشتاء الرّاعد

رغم الصّقيع ...

سنظلّ نحلم بالرّبيع ...

سنظلّ نكتب للرّبيع ...

سنظلّ ننتظر الرّبيع ... (عبد الحميد مخالفة، 2003).

إنّ الشّاعر في قلب هذه المواجه والألام والجراح لم يستسلم ولم ييأس ولم يركن إلى السّلبية والانهازم.. بل امتطى صهوة حلمه منتظرا الرّبيع بكل ما يحمله من حياة أجمل وأفضل.

لم يكن حزن واغتراب الشّعراء الجزائريين مظهرا سلبيا أو هزيمة، بل اتخذ مظهرا ايجابيا في أغلبه، نابضا بالحياة والأمل والحلم والتّحدي.

فقد راح ميهوبي يوقد شمعة لوطنه في قصيدة "شمعة لوطني" يدعو فيها إلى الحلم والتّفاؤل والتّضحية رغم مرارة الجراح وقسوة الواقع الأليم، يقول:

إذا سرقوا ضوء عينيك منك

فلا تيأسن

واحترق مثل كل الرّجال..

لنوقد شمعة هذا الوطن (ميهوبي، 1997، ص 72).

إنّ الشّاعر يدعو للتّضحية بالنّفس.. والنّفيس من أجل أن يحيا الوطن، من أجل أن نردّ له ألقه واستقراره وحريته، من أجل أن نحبي ونبعث الحلم والبسمة والأمل.

نجد كذلك عبد الحميد شكيل في قصيدة أهداها لروح صديقه محمّد طالب البوسطنجي (شاعر عراقي اغتيل بمقر إقامته بالظّاهير عام 1994)، يصنع حلمه ويغني للصباح ويفتح صدره للرصاص، يقول:

ينهض طيرنا

من رماد العصور

يصنع حلمنا

والبلاد التي لا تهون

نرتدي عرينا نغني لصباح أغر

شكله من سنا القمر

نفتح صدرنا لرصاص الظّلام

موتنا في سبيل السّناء لونه لا يهّم (شكيل، 2002، ص 87-88).

وفي قصيدة يوسف وغليسي- "حلم من أوجاع الزّمن الأموي ...!" "يعرض لنا حلمه المهشم الذي يهرب إليه كلّما اشتدّ به القلق واليأس وحين يصادر حقّه في الكلام، يقول:

أنا والهمام،،

أنا والذي خطّ أحلامه الخضر فوق رمال المدائن

بتنا سكارى على نخب حلم تهشم ذات شتاء

نعانق طيف حمام!

أنا والهمام

أنا والذي كان أهدى ورود الشّمال لرمّل الجنوب!

أنا والذي شرده الصّحاري بغير ذنوب ..!

نظل على ذمّة الحلم _ نرسم خارطة لبلاد

إليها نهزّب أحلامنا

حين حظر الهوى ..

وحين يصادر حق الكلام!... (وغليسي، 1995، ص 85).

لقد مثلّ الحلم ملجأ ومنفى الشاعر من شرواقعه البائس فعندما يحظر الهوى والحب وتتفكك عرى العلاقات الاجتماعية والأخوية، وعندما يصادر حق الشاعر من الكلام والنصح والإرشاد في اعمار بلاده سياسيا وفكريا.. فإنّ الحلم هو سبيل الشاعر في بناء البلاد التي يرتئها كما أراد لها أن تكون.

وهناك من ربط أحلامه بالبعد الديني الإسلامي، في ذلك يقول حسين زيدان متفائلا حالما بمستقبل زاهر ومهم:

لا بد أن يأتي محمّد

صهوة للانتصار

وللمحبة والسّلام

لا بد أن يأتي غبوقا

رغم أنف اللائكية والنّظام

.....

أبشر: فكل تصعلك يأتي بأحمد في

(حرا)

ما بعد هذي الجاهليّة يا أخي

إلّا رسول قادم:

في عقله: اقرأ

وفي أنفاسه: أم القرى.. (زيدان، 2002، ص 24-25).

وهناك من لوّن حلمه بلون الطّبيعة مستخدما رموزا تضيفي الحركة والحياة، كما فعل عثمان لوصيف في قصيدة السّنابل:

تحت أطباق الرّماد

في ظلام العالم المنسي

في حمى التّراب

أغمضت أجفانها

واستسلمت للحلم.

من أجل صباح يشرق من عمق السّواد (لوصيف، 1988 ص 18).

كأنّ الشّاعر يرمز بالسّنابل لمأساة وطنه التي يعيشها كل غيور ومثقف بقلب نابض بالأمل والحلم، فهو يريد أن يقول إنّه إذا كان الرّماد من نار فإنّه يخبئ في أحشائه جمارا متقددة بمجرد نفخة فيها تشتعل من جديد، والشّاعر يحذوه أمل كبير في تجاوز هذا السّواد.

كما التّجأت الشّاعرة وسيلة بوسيس إلى الحلم والخيال كملاذ وحيد لها، عندما عجزت عن تحقيق التّغيير، ترفع بفضلها مؤقتا عن تأثير الواقع المعيش، وتتجاوز ضغوطه عبر التّحليق في رحاب الطّبيعة وما وراء الطّبيعة:

سالت أبي فقال:

هنا نعيش ونفنى

ومنا ألوف

فما كان مني سوى

أن رضيت

ارتخيت تماما

ورحت أطوف

بكل الحنايا التي قد رعنتي

ورحت أطيّر

مدى الملكوت الأليف .. (بوسيس، 2007، ص 27).

ثم إنَّ التَّجاءَ الشَّاعِرَ إلى الطَّبيعة بحثًا عن الأمل والحياة هو " معادل موضوعي لما يفقده الشَّاعر في واقعه المعيش خاصَّة عندما يثقل عليه الواقع، ويسيطر عليه الشَّعور بالكآبة، فيصبح الهروب إلى الطَّبيعة نوعاً من الرِّفْض لهذا الواقع " (هيمه 2003 ص 126). ولكن ورغم كل شيء تبقى الجزائر الحلم المنشود للشَّاعر الجزائري:

رَبِّمَا تنجب بعد اليأس عاقر

رَبِّمَا يحكمنا في دولة القانون بالكعبين ماجر

رَبِّمَا يمتلك الذَّرة شعب جائع من دون حاضر

رَبِّمَا يحكم عرش الصَّين قاصر

رَبِّمَا يحترف التَّأليف تاجر

رَبِّمَا أسست المرأة حزبا لانكيا باسم آلاف الحرائر

رَبِّمَا يحفظ ماء الوجه للدينار مهاجر

رَبِّمَا..

رَبِّمَا أحلم يوما في بلادي... بالجزائر. (ميهوبي، ص 46).

هذه الملصقة جاءت في صياغة لغويَّة خاصَّة ساد فيها عنصر الاحتمال حيث جعل الشَّاعر مطلع كل جملة شعريَّة " رَبِّمَا متبوعة بالفعل المضارع " رَبِّمَا تنجب رَبِّمَا يحكمنا رَبِّمَا يمتلك، رَبِّمَا يحترف. وهذا دلالة على ضعف احتمال حدوث الأمر ليختم الشَّاعر ملصقته بالأمر الذي يترجى حدوثه بإلحاح (رَبِّمَا أحلم يوما في بلادي بالجزائر).

وتتمسك ربيعة جلطي بالأمل حاملة متفائلة بغد جميل، تغيب فيه المعاناة، ويهلك فيه القمع، محاولة تطلعها من الحاضر نحو المستقبل، وهو ما يحيل إلى وضع نفسي-منهار، غير قادر على استنبات الأمل في الرَّاهن:

في الرِّبيع القادم سأصير أجمل

ستأتي أمي تلفني بشعرها الأطول

تهدهد عيونها السود أطفالي

تلم الليل عني، وأنياب الكواسر. (جلطي، ص 71).

فنجد كذلك الشاعر يوسف وغليسي يقول:

وصبراً يا آل غيلان رغم إكتحال المدى بالسواد

ستبعث عنقاء أحلامنا من رماد

وصبراً فما قتلوا حلمنا - يا صديقي - وما صلبوه..

سيحتاج هذا المدى بعد عام. (وغليسي، ص 86).

يحيلنا النص الشعري على حادثة تراثية مقدسة دينيا وهي قصة سيدنا "عيسى" عليه السلام في قوله (وصبراً، فما قتلوا- المن يا صديقي - وما صلبوه)، حيث تكون رمزاً للحلم، وبالأحرى فالحلم/الشاعر، الشاعِر/الحلم، لأن الدلالات المعنوية (القتل الصّلب، العذاب، المكابدة، المحنة) لا تتمشي مع الحلم الذي هو الآخر قيمة معنوية وبالتالي فالحلم هو الشاعر، والشاعر هو الحلم، فالسلطة السياسية المستبدة، والتي تمارس القمع والتعذيب والرّجر، ظننا منها أنّه بهذه الممارسات اللإنسانية بإمكانها القضاء على الحلم (الشاعر) الذي هو حلم الجماهير، وما هذا الظن إلاّ وهماً.

وهذا الحلم هو بلا شك انعكاس للقلق والعذاب والمعاناة المتولدة في نفس الشاعر ووليد الخوف الكامن في أعماقه والشاعر نفسه يدرك ما يصنعه هذا الحلم أو ما يتحقّق له من خلاله، هناك ترابط بين الحلم والواقع، فالشاعر يلوذ بالحلم، لأنّه يرغب في تغيير واقعه وتجديده وبعثه خلقاً جديداً كما يفعل العنقاء.

ونجد الشاعر عثمان لوصيف يؤسس حلمه وتفاؤله على تصوّر قومي عربي يؤمن بتحقيق الوحدة العربية مستقبلاً فيقول:

سينقشع الليل عن أفقنا

لا محالة يوماً

ويولد من كل أوجاعنا

وصباباتنا

طائر عربي

يفرد مجدا

يهزجنا حيه ملء المدى (لوصيف، 1997، ص 56-57).

إنّ الحلم والتّفاؤل في الشّعر الجزائري " لا ينم عن بيئة مزدهرة يجد فيها الشّعراء ملاذاً آمناً - لأنّهم لم يعبروا عن الواقع إلّا من حيث سلبه - بقدر ما يمثّل شكلاً من أشكال مقاومة فساد وانهيار وخراب هذا الواقع، فنجدهم يعبرون عن قهرهم وإحساسهم الأليم بظروف ومظاهر هذه البيئة السّلبية المغتربة هذا التّعبير الذي يتخذ في بعض أشكاله التّفاؤل ميزة من مزايا المقاومة والتّشبث بالأمل القادم. " (مكسح، ص 257) والحلم الأجل الذي يقوده جيل جديد يحلم ليقود قاطرة النّجاح والعدالة والحرية.

خاتمة: وفي الأخير ومن خلال وقوفنا عند ظاهرة الحلم وجمالياتها في القصيدة الشّعريّة الجزائريّة الحديثة، فإنّنا خرجنا بمجملّة من النّتائج والاستنتاجات نوردّها فيما يلي:

- كان الحلم لدى الشّاعر الجزائري الحديث انعكاساً للقلق والعذاب والمعاناة المتولدة في نفس الشّاعر، ووليد الخوف الكامن في أعماقه؛
- هناك ترابط بين الحلم والواقع، فالشّاعر يلوذ بالحلم، لأنّه يرغب في تغيير واقعه وتجديده وبعثه خلقاً جديداً؛
- كان الحلم شكلاً من أشكال مقاومة فساد وانهيار وخراب هذا الواقع، فقد وجدنا كثير من الشّعراء يعبرون عن قهرهم وإحساسهم الأليم بظروف ومظاهر هذا الواقع الفاسد والسّلي؛
- لقد مثّل الحلم بالنّسبة للشّاعر الجزائري ملجأً ومنفى من شر واقعه البائس، فعندما يحظر الهوى والحب وتتفكك عرى العلاقات الاجتماعيّة ويفسد المحيط السّياسي ويتعفن المناخ الفكري والثّقافي، وعندما يصادر حق الشّاعر في الكلام والنّصح والإرشاد في أعمار بلاده سياسياً وفكرياً.. فإنّ الحلم هو سبيل الشّاعر في بناء البلاد التي يرتئّيها كما أراد لها أن تكون.

قائمة المصادر والمراجع:

1. عبد الله العشي، يطوف بالأسماء، منشورا أهل القلم، وزارة الثقافة، الجزائر.
2. عبد الحليم مخالفة، سنظل ننتظر الربيع، ط1، 2003.
3. عبد الحميد هيمة، الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر 2003.
4. عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، منشورات اتحاد الكتاب الجزائري، ط1 2002.
5. حسين زيدان، شاهد الثلث الأخير، اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط. 2002.
6. دليلة مكسح، البيئة في الشعر الجزائري المعاصر، جامعة باتنة السنة الجامعية: 2014-2015 (اطروحة دكتوراه).
7. ربيعة جلطي، شجر الكلام، منشورات السفير، مكناس المغرب ط1، 1991.
8. ربيعة جلطي، كيف الحال، دار حوران للنشر، دمشق، 1996.
9. عثمان لوصيف، أبجديات، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1997.
10. عثمان لوصيف، أعراس الملح، دار البعث، قسنطينة، ط1 1988.
11. عز الدين ميهوبي، اللعنة والغفران، منشورات دار الأصاله سطيف، الجزائر 1997.
12. علي ملاحي، أشواق زممنة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986.
13. وسيلة بوسيس، أربعون وسيلة وغاية واحدة، الطباعة الشعبية للجزائر، الجزائر 2007.
14. يوسف وغليسي، أوجاع صفصافة، منشورات دار الهدى الجزائر، ط1، 1995.